شخصية الأمة العربية

قوامها وعناصرها

بقلم محمد خلف الله أحمد

اذا كان للفرد كيانه الذاتي الذي يؤلف شخصيته ويميزها ، والذي يقوم على شعوره بنفسه وإرادته ، وخصائص نظامه العقلي وأسلوب سلوكه في الحياة ، فان للأمة كذلك شخصيتها التي تتألف من إدراكها المشترك ، وخصائصها الفكرية والاجتماعية والاخلاقية . ومن تراثها الأدبي والفني والفلسفي والعلمي ، ومعالم تاريخها وأيامها وبطولاتها ، والدور الذي قامت وتقوم به في تقدم الانسانية ورقيها .

واذا كان المتكلمون بالعربية اليوم يؤلفون مجموعة بشرية كبيرة ، تشغل رقعة فسيحة من الأرض في قارتي آسيا وإفريقية ، وتنقسم الى أقوام وأوطان متجاورة لكل منها شخصيته التي صنعها أهله وبيئته وتاريخه ، فانهم جميعاً يأتلفون في شخصية أوسع وأشمل ، لها وجودها وذاتيتها ، هي شخصية العالم العربي أو الأمة العربية الكبرى . وسنحاول في هذا البحث أن نرسم الخطوط الرئيسية لهذه الشخصية المتكاملة ، التي هي أساس فلسفة القومية العربية في تفكيرنا المعاصر ، فنبرز قوامها وأهم عناصرها وخصائصها ونتتبع الأطوار الرئيسية لنموها ، والمكان الذي شغلته قديما ، في عصورها الزاهرة ، ونجاهد أن تشغل مثله الآن ، في حياة الجماعة الانسانية :

١ — ان أقدم مايطالعنا من معالم شخصية هذه المنطقة التي تعرف الآن بالعالم العربي — سبقها في مضمار التطور الحضاري : ففي وديانها وسهولها ، وعلى ضفاف أنهارها وشواطىء بحارها قامت الحضارات الآشورية والبابلية والكلدانية والآرامية والفينيقية والمصرية وغيرها . ومن آثار

عبقرياتها استمدت الانسانية كثيراً من مقومات حضارتها العامة [1] : كالكتابة وأدوات الزراعة والحرب وهندسة البناء ونظم التشريع . وهذا السبق موضع اتفاق بين الباحثين ، فكلهم يبدأ درس تاريخ المدنية بحضارات الشرق القديم . ومن حق كل مواطن نشأ على أديم هذه المنطقة أن يعتز بهذا السبق الحضارى ، وأن يستمد منه شعوراً بكرم النجار وعراقة المنبت . وهو ليس مجرد إرث قديم عفا ودرس ، ولكنه آيه من آيات النضج العقلى والتطور الفكرى ، الذى وجدت بذوره منذ القدم فى هذه المنطقة أرضا خصبة صالحة ، والذى آتى أكله بعد ذلك طيبا مباركا فى المرحلة الاسلامية العربية .

٢ — والعنصر الثانى القديم المميز لتاريخ هذه المنطقة أن صحاريها ورباها وجبالها كانت مهداً للديانات السماوية الكبرى ، التى دان ويدين بها شطر كبير من سكان العالم ، والتى قامت وستظل تقوم بالدور الأكبر فى توجيه بنى الانسان نحو المثل الرفيعة والحياة الفاضلة . وتتضح لنا قيمة هذا العنصر فى تراث الشرق القديم اذا تذكرنا ما تقوم به الانسانية الآن من جهاد شاق فى سبيل تقرير المبادىء والمثل التى تحد من أطماع البشر ، ومن عدوان بعضهم على بعض ، واستخدام عبقرياتهم ومواهبهم فى إفناء بعضهم بعضا . ومن الواضح ان الانسانية لو رجعت الى ما قررته ووجهت اليه تعاليم الديانات السماوية واحدة بعد أخرى لعاش بنو الانسان فى ظل أمن وارف وخير شامل .

هذا العنصر السماوى فى تراث منطقة الحضارات يطبع شخصيتها بطابع روحى ، ويمد تقاليدها الأخلاقية والاجتماعية بميزان يحفظها من أن تميل هنا أو هناك مع النزعات الوافدة والمذاهب المجلوبة ، ويخلق فى نفوس أهلها احساساً بالاستعلاء الروحى المحمود الذى ينفر من التبعية فى مختلف أوضاعها .

---

(١) راجع (أ) " شجرة الحضارة " تأليف ول ديورانت . ترجمة أحمد فخرى — ج ٢ — الفصول ٢٠ — ٢٢ [القاهرة ١٩٥٨] .
(ب) انتصار الحضارة" (تاريخ الشرق القديم)" تأليف ج . هـ . بريستد . ترجمة أحمد فخرى . الفصل الأول . [القاهرة ١٩٥٥] .

٣ ــ ولكن شخصية هذه المنطقة تدخل ــ منذ القرن السابع الميلادى ــ فى دور جديد من النمو والتفتح والتكامل ، اذ يطلع عليها من شبه الجزيرة العربية نور يضيء لها معالم الطريق ، ويكشف لها عن آفاق واسعة من الكمالات الانسانية ، وهيأها لأن تكون مركز إشعاع حضارى جديد ، يأخذ مكانه اللائق به فى تطور الحضارة الانسانية العامة : ففى ذلك القرن صدع الرسول العربى « محمد بن عبد الله » برسالته ، التى أكدت أنها مصدقة لما بين يديها من الرسالات ، وأنها انما تدعو الناس جميعاً الى كلمة سواء ، هى عبادة الله وحده لا شريك له ، والتصديق بكتبه ورسله ، وبناء السلوك الانسانى على أسس من الفضيلة والعدالة والاخاء والتعاون ، واقامة الميزان بين الروحانية والمادية فى الحياة الانسانية ، وتوجيه العقل البشرى الى كشف أسرار الوجود ، وتسخير موارده وخيراته فيما يعود على الناس جميعاً بالسعادة والرخاء .

هذا المؤثر الحضارى الجديد ، الذى حمل معه صفاء الصحراء العربية وبيانها ولغتها ، وفتوتها ومروءتها وحماستها ، لم يلبث أن وجد من منطقة الحضارات القديمة فى جنوب آسيا الغربى وعلى شواطىء البحر الأبيض الشرقية والجنوبية بيئته الخصبة المواتية ، التى هيأها التاريخ ، والهجرات والصلات اللغوية والثقافية والتجارية منذ القديم لأن تؤلف تحت ظلال الاسلام وحدة انسانية سمحة متماسكة ، ذات لغة واحدة ، وثقافة مشتركة ، ومثل وعادات وتقاليد متجانسة . وبذلك تمكنت قبل مضى وقت طويل من أن تنشىء عصراً حضاريا ذهبيا[1] ، وأن تقيم فى ربوعها مراكز للمعارف الانسانية ، لا تزال وستظل ــ باذن الله ــ حية مزدهرة ، واستطاعت أن ترسل أضواءها الروحية والثقافية والسياسية الى معظم أرجاء العالم القديم ، وأن تشغل طوال مرحلة كبيرة من الزمان مركز المعلم والمثقف للكثير من الأمم والشعوب .

---

(١) راجع « الاسلام والحضارة » . م . خلف الله . [وزارة الارشاد القومى . محاضرات الاذاعة . القاهرة ١٩٥٧] .

هذه الحضارة الاسلامية العربية ، التي خفقت راياتها فوق قارتي آسيا وافريقية وأجزاء من جنوب أوربا ، والتي كان العالم العربي قلبها النابض بالحركة والحياة والقوة الدافعة ، انشأت الشخصية العربية انشاء جديداً ، بما زاوجت بين الثقافات والاجناس ، وأشاعت من مظاهر التسامح والتعاون [1] وبما حملت معها من عوامل روحية وثقافية عميقة الأثر في حياة الفرد والجماعة : فقد اعطت القاعدة الاسلامية المركزية — وهي التي عرفت بالعالم العربي — لغتها الموحدة التي كان عرب شبه الجزيرة قد صقلوها في مواسمهم وأسواقهم وخلدوها في فهم المنضل وهو البيان . ثم جاء القرآن — وهو الكتاب السماوي المبين — فأكمل لهذه اللغة عبقريتها في التعبير ، ودفع علماءها في القرنين الثاني والثالث الهجريين الى أن يقوموا بحركتهم الاكاديمية البارعة في تقنينها وارساء قواعدها التركيبية والنقدية [2] . وبهذا استجابت تلك اللغة لمطالب الحضارة الاسلامية الواسعة في نهضتها العقلية ، فأصبحت لغة العلم والفلسفة والكتابة والتأليف ، من مشارف المحيط الأطلسي الى أواسط آسيا وجنوبها . وفتحت تلك اللغة أبوابها واسعة لاستقبال الثقافات القديمة المترجمة — من يونانية ولاتينية وفارسية وهندية وسريانية وغيرها ، ثم درستها ونقدتها وأضافت اليها وأبرزتها من جديد في قالب ثقافة اسلامية عربية ، ميسرة لطلاب المعرفة على اختلاف ألسنتهم وأجناسهم .

وكما اعترف العالم الحديث بحضارتنا الأولى ، وبما كان لها من سبق في العالم القديم ، اعترف بحضارتنا الاسلامية العربية وفتوحها وكشوفها في مختلف ميادين المعرفة ، وبما كان لها من آثار في عصر الاحياء وفي تطور آداب الغرب وتفكيره الفلسفي والعلمي [3] .

---

(1) راجع (أ) " Glories of salam " نور أحمد . الباكستان لاهور ١٩٥٨ .

(2) راجع [Early Stages in the Development and Standardisation of Arabic Literary Language] م. خسف الله . المجلد الحادي عشر من مجلة كلية الآداب بالاسكندرية سنة ١٩٥٥

(3) راجع The Legacy of Islam . توماس ارنولد وآخرون [لندن . الطبعة الأولى ١٩٣١]

ومما له دلالته أن بعض الغربيين المحدثين قد ساهموا فى دراسة حضارتنا هذه وابراز طابعها وبيان آثار علمائنا فى ميادين الطب والرياضة والفلك والكيمياء والفلسفة والاجتماع وعلوم البحار .. وقد ازدادت الآن — لأسباب كثيرة — عناية الغربيين بدراسة هذه الحضارة ، وبتعرف آثارها العميقة فى حياة العرب وسائر المسلمين المعاصرين ، وأخذت المؤسسات العلمية فى الدول الكبرى ينافس بعضها بعضا فى انشاء معاهد الدراسات الاسلامية والشرقية ، وفى نشر كتبنا القديمة وترجمتها الى لغاتهم ، وفى عقد المؤتمرات لبحث نواحى الثقافة الاسلامية العربية ورصد تياراتها وحركاتها المعاصرة بل أخذت المذاهب الحاضرة المتصارعة فى غرب وشرق تحاول أن تتلمس نواحى من القرب والاتصال بين تعاليمها وتعاليم حضارتنا .

ومن الواضح أن هذه الحضارة التى أنشأت عالمنا العربى الأوسع ، وطبعت شخصيتنا بطابعها ، جديرة منا نحن العرب بالعناية الكبرى فى مناهج مدارسنا وجامعاتنا . حتى يعرف شعبنا حضارته وتاريخه فيعرف مكانه ويعرف نفسه . ومن حق هذه الحضارة على كل مواطن عربى أيا كانت بيئته وعقيدته أن يعرف ذخائرها وعلماءها وان يتبين روافدها التى اضافت قوة واتساعا الى نهر الحضارة الانسانية الدائب الجريان منذ القدم .

ومن ألزم ما يلزم لشبابنا على اختلاف ميادينهم الثقافية أن يعرفوا آثار أسلافهم : كابن الهيثم والرازى وابن سينا ، وجابر ، وثابت بن قرة ، وابن البيطار ، وابن النفيس ، وابن رشد ، والخليل . وأبى العلاء ، والغزالى ، والمسعودى ، وابن خلدون وغيرهم ، وان يلموا بما تركت اللغة العربية من آثار فى مصطلحات العلوم فى الغرب ، ومما أفاد الغرب من تقدم العرب فى العلاج والمستشفيات ، وصناعة الورق ، والخرائط الجغرافية ، ودراسة المعادن ، وفنون الحرب والأسلحة وغيرها ، وأن يطلعوا على ما كتب الغربيون عن تراث الاسلام وحضارة العرب ، وعلى ما قام به الباحثون فى البلاد الاسلامية المعاصرة من دراسات لهذا التراث وأمجاده .

هذه الوقفة التى وقفناها عند الحضارة العربية الاسلامية ، قصدنا منها أن نتبين كيف نمت وتفتحت وتكاملت شخصية العالم العربى ، الذى كان

من حظه أن حمل لواء هذه الحضارة ، فتركت عليها طابعه ، وخلعت هي عليه طابعها ، فأصبح الحديث عن الحضارة العربية أو الاسلامية في جوهرة حديثا عن تراث هذه المنطقة ، والمناطق التي اتصلت بها روحيا وثقافيا ، واصطنعت لغتها في الكتابة والتأليف .

واذا أردنا أن نبرز الطابع الرئيسي للشخصية العربية في تاريخهاالاسلامي وجدنا الركن الأول فيه وحدة اللغة — وتلك ظاهرة عميقة الأثر في حياة الانسانية ، فلغة أي مجتمع صغر أو كبر .. هي ترجمان عواطفه ومشاعره وأفكاره ورغائبه واهدافه ، وسجل تاريخه وتراثه وأدبه ، والحبل الذي يصل حاضره بماضيه ، وطريقه ببلاده . والاشتراك فيها هو الأساس الأول للتعاطف والتعاون والشعور بالمواطنة والقومية [1] . وهذا الركن في ذاته مصدر من مصادر اعتزازنا بأنفسنا وتاريخنا : فلغتنا من أغنى اللغات الكبرى تراثاً ، وأطولها عمراً ، وأبقاها على الزمن اتصالا ، وقد وسعت ما وصل اليها من معارف الأقدمين في الماضي ، وهي الآن تثبت قدرتها على الاتساع لثمار الفكر الانساني الحديث ، بل انها تشارك بانتاجها في تنمية الثروة الأدبية والعقلية للعالم المعاصر .

والركن الثاني من أركان الشخصية العربية وعيها السياسي والانساني المبكر : فقد شهد المجتمع العربي الاسلامي أول وأقدم تجربة عملية ناجحة في تقرير حقوق الانسان [2] . وقد يبدو هذا القول مستغربا عند النظرة الأولى : «فحقوق الانسان» تعبير لم يشع استعماله الا في العصر الحديث نتيجة للثورات وانتشار الروح الديمقراطي وتقدم التفكير السياسي والاجتماعي ، وهو يدل على مجموعة النواحي التي لا يزال المجتمع الدولي الحديث يجاهد في سبيل توفيرها لكل فرد ولكل شعب ، حتى تتحقق له ذاتيته كاملة ، وحتى

---

(1) راجع : " محاضرات في نشوء الفكرة القومية " . معهد الدراسات العربية العالمية [مذ ٣ . بيروت ١٩٥٦] . المحاضرة الأولى .

(2) راجع : "موقف الحضارة الاسلامية من حقوق الانسان" . محمد خلف الله . [بحث نشرته المجلة المصرية لقانون الدول المجلد الثاني عشر ج ٢ . ١٩٥٦] .

تهيأ له الشرائط الأساسية لحياة لائقة بالأنسان وبالجماعة الانسانية . ولكن الغرابة لا تلبث أن تزول اذا تذكرنا ان الاسلام منذ نشأته قام فى صورة رسالة خالدة للانسانية عامة : غنيها وفقيرها ، وأبيضها وأسودها ، ومشرقها ومغربها ؛ وكان لب هذه الرسالة تحرير الانسان من الخضوع لغير الله فى عقيدته وتفكيره وشخصيته ومعيشته ، وتوجيه الاهتمام الى جوهر الانسانية من روح وعقل وخلق وعلم ، والتهوين من شأن الفوارق المادية التى لا تتصل بذلك الجوهر اتصالا وثيقا . ولم يجىء تقرير هذه المبادىء فى صورة وثيقة منفصلة محدودة بزمانها ومكانها وظروف الاجتماع المحلية المحيطة بها ؛ ولكنها جاءت ركنا من أركان عقيدة شاملة توضح العلاقة بين الانسان وخالقه ، وبين أفراد البشر بعضهم وبعض ، فى اجتماعهم ومعاملتهم وسياستهم . وهكذا احرزت نصيبا من قداسة العقيدة التى هى ركن منها ، ومن خلود الشريعة التى هى جزء من لبها وجوهرها . وقد صحب تقريرها منذ البداية عامل التطبيق الصحيح على يد الرسول وخلفائه وقوادهم وعمالهم على الأقاليم .

فمن المعروف المقرر أن الحضارة الاسلامية منذ نشأتها كفلت حرية العقيدة والفكر والمعرفة لجميع مواطنيها مسلمين وغير مسلمين : فوفرت للمسلم حريته فى تفكيره الدينى وفى طريقة فهمه للدين وشرائعه وأسراره ، دون أن يحول بينه وبين تلك الحرية تسلط من فرد أو جماعة ودون أن يصيبه من وراء آرائه الدينية ضرر فى نفسه أو ماله أو عمله ؛ وضمنت لغير المسلم — الذى يعيش فى دار الاسلام — حريته فى أن يحيا حياته الدينية الخاصة ويتعبد على طريقة دينه ، وينظم شئون معيشته وفقا لمقتضيات ذلك الدين ، دون أن يتعرض لمضايقة أو اضطهاد أو أن يضار فى نفسه أو ماله أو عمله من جراء مخالفته فى الدين لغالبية المجتمع من حواليه . (١)

---

(١) راجع : " موقف الاسلام من حرية العقيدة والفكر " . محمد خلف الله [بحث ألقى فى الندوة الاسلامية العالمية — باكستان ٥ لاهور ١٩٥٧/١٩٥٨ ونشر فى كتاب أعمال الندوة] .

وهذه الناحية قد درسها بعض الباحثين الغربيين من مختلف نواحيها دراسة متسمة بالانصاف ، وقرروا أن التسامح الديني كان أساساً كبيراً من أسس الحياة في طول البلاد الاسلامية وعرضها ، وأن الحاجة الى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق أوجدت من أول الأمر نوعا من التسامح بين المسلمين وأهل الديانات الأخرى المواطنين لهم ، مما كان مظهره نشوء علم مقارنة الأديان : أي دراسة الملل والنحل على اختلافها والاقبال على هذا العلم بشغف عظيم (١) . وقد كفل المجتمع الاسلامي حرية التبادل الثقافي وحض عليها ، فاقبل الناس من مختلف الأجناس على تعلم اللغة العربية واحرز بعض غير العرب فيها شهرة ونبوغا ، وتخصص كثير من المواطنين على اختلاف ملتهم وعقائدهم في ترجمة التراث القديم الى اللغة العربية . وقام فلاسفة الفكر الاسلامي بمجهود جبار في التوفيق بين مقررات العقيدة الدينية والتفكير العقلي الفلسفي ، وبذلك اتسعت الحضارة العربية الاسلامية لمختلف الاتجاهات والمذاهب ، وراجت فيها أسواق المعرفة ، وازدهرت الفلسفة والعلم مجرداً وتجريبيا ، ولم يعرف تاريخها قضية بين الدين والعلم استعصت طويلا على التفاهم والمصالحة .

كذلك كان مما عنيت به حضارة الاسلام عناية خاصة اقامة الأركان الضرورية لبناء الحياة الديمقراطية الصحيحة : من عدل في القضاء ، وشورى في الأمر وثقة بين الحاكم والمحكوم ، وتكافؤ في الفرص ، وتكافل بين طبقات الأمة ، وتعاطف بين أغنيائها وفقرائها ، وقيام كل فرد فيها بمسئولياته مما يرعاه ، وما الى ذلك من الخصائص والنواحي التي أصبحنا نتطلبها في الديمقراطيات الحديثة (٢) .

---

(١) راجع : « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » تأليف آدم متز . ترجمة م. أبو ريدة . [لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة . ١٩٤١ . ج ١ فصل ٤] .

(٢) هذه الشئون مقررة أصولها في نصوص القرآن وسنة الرسول ، وهي تحتل مكانا بارزا في خطب الخلفاء الراشدين وعهودهم – ومنها في نهج البلاغة للإمام علي ثروة كبيرة . ويمكن الرجوع اليها في دراسات المنصفين من الغربيين وفي كتب العلماء المسلمين الذين تناولوا .

وكما أعطتنا حضارتنا وتاريخنا هذا الطابع الروحي والثقافي أعطتنا طابعا سلوكيا واجتماعيا : فقد اشتهر اسلافنا منذ القدم بالشجاعة والنجدة والكرم والفروسية وإباء الضيم ورعي الذمار واغاثة الملهوف والمحافظة على العرض والشرف (١) . وهي صفات سجلتها آدابنا وتوارثتها تقاليدنا ، ثم جاء الاسلام برسالته الانسانية السامية ، فهذب هذه الصفات ، ووجهها وجهات جديدة في خدمة المجتمع الفاضل الذي انشأه ، ووضع أمامها مثلا عاليا تجاهد في الوصول اليه : فتحولت الشجاعة والعصبية والفروسية وإباء الضيم الى قوة في العقيدة ، وصلابة في الحق ، واستشهاد في سبيل المبادىء والمثل ، وتضحية من أجل المجموع ، وذياد عن الوطن ، ومحافظة على روابط الأسرة والجماعة ، وجهاد للنفس وحمل لها على ما تكره في سبيل تحقيق الخير العام .

وهكذا استقام لهذه المنطقة وحضارتها نموذج الخلاق واجتماعي واضح : يستند الى أساس من العقيدة ، وينجه الى تحقيق الكمالات الفردية والجماعية ويشد الصلاح والسعادة في الحياتين العاجلة والآجلة .

٤ — هذه العوامل والخصائص من تاريخية واقليمية وحضارية وروحية تعاونت على أن تجعل من الأمة العربية أمة وسطا بين الناس : فهي وسط في رقعتها المكانية بين الشرق والغرب ، تمر بها التجارة غادية ورائحة ، وتعبرها وسائل النقل والمواصلات على اختلاف أنواعها ؛ وهي وسط في جوها المعتدل ، بين حرارة المناطق الاستوائية ، وبرودة المناطق الشمالية ، وطبيعة أرضها وسط ، تجمع بين السهل والجبل ، والماء واليابس ، والبادية والحاضرة . ويخل سطحها كثيراً من الخيرات ، كما يضم جوفها فيضا

= السياسة الشرعية بالإيضاح والتحليل : كالماوردي والغزالي ، وابن تيمية والسيد أمير علي ، والشيخ محمد عبده . ومن هذه النواحي ما تناوله الباحثون في المؤتمرات العالمية الحديثة فثقافة الإسلامية كمؤتمر برنستون بأمريكا في خريف سنة ١٩٥٣ ، ومؤتمر لاهور بالباكستان في أوائل سنة ١٩٥٨

(١) راجع " الفتوة عند العرب " عمر الدسوقي [مطبعة لجنة البيان العربي — القاهرة ١٩٥١] .

من مصادر الثروة والرخاء . ثم هي وسط فى حضارتها بين القديم والجديد : فلغتها — على قدمها النسبي وطول تاريخها — متصلة الحياة ، قابلة للتطور والتجدد ، وأدبها يجمع بين اصالة الفن القديم ، وخصب الفنون الحديثة ، وثقافتها تتصل بسبب من الثقافات السابقة ، وتساهم بنصيب فى رقى الثقافة المعاصرة . وهي فى عالم الأديان مكان القبلة والوسط ، تتجه الى أماكنها المقدسة مئات الملايين من المؤمنين فى حجهم وصلواتهم .

والعلماء متنبهون الى أن ثبوت صفة الوسط لأمة من الأمم ، فى كثير من النواحى المشار اليها ، ليس فى حد ذاته مزية أو فضيلة ضرورية ، وليس شرطا جوهريا فى رقى الأمة أو نباهة شأنها ؛ وحتى ان كان مزية ، فهو لا يغنى عن الأمة من العمل والكفاح والاستعداد شيئا . ولكن موضع الفضل فيه هو ارتباطه بالخصائص النفسية والاجتماعية للأمة ، وبالطابع الذى تتسم به حياتها ومكانها بين الأمم .

وليس هناك من شك ، فى أن العرب فى تاريخهم الطويل ، يمثلون نماذج من الأخلاق الفردية والاجتماعية ، سجلتها آدابهم وآثارهم ، وشهدت التجارب الانسانية بصلاحها واعتدالها وحسن أثرها فى سير الحياة ؛ فهم من ناحية يمثلون أخلاق القوة كما أشرنا : من شجاعة واباء واقدام وفتوة ، ومن ناحية أخرى يمثلون الكرم والايثار وحماية الضعيف ، ونصرة المظلوم ، كما يمثلون فى مشاعرهم ووجداناتهم رقة الحس ودقة الشعور . وهم رغم ما عرفوا به فى بداوتهم من ثارات وحروب — لم يكونوا فى تاريخهم الحضارى أمة عدوان واستعمار ، أو تخريب وتدمير . ولكنهم فى انتشارهم فى الأرض وفى ملكهم الواسع الذى أسسوه ، وحضارتهم التى أقاموها ، كانوا حملة رسالة ودعاة اصلاح ، وكان دورهم الرئيسي دور المرشد والموجه الى حياة أفضل وأكمل . لذلك أخذت حضارتهم طابعا انسانياً وثقافياً واضحاً ، فازدهرت فيها العلوم والمعارف ، وسادت مبادىء الاخاء والمساواة واستطاع كل مواطن فى عالم العروبة الاسلامية ، أن يستثمر مواهبه فى خدمة الدولة وصلاح المجموع ، وأن يرقى الى ما تؤهله له كفايته من منصب أو وظيفة .

بهذا الموقف الوسط ، الجامع بين الشخصية القومية المتكاملة ، والارادة الحرة الخيرة ، حفظ العرب كيانهم وذاتيتهم ازاء الامبراطوريات التي جاورتهم في القديم ، وحاولت انتقاصهم من أطرافهم . وقد حفظت لنا كتب الأدب ألواناً طريفة كبيرة الدلالة ، من المناظرات الحقيقية أو المتخيلة ، بين وفود العرب وأصحاب التيجان من الأمم المجاورة . وكلها تعبر عما كان يتحلى به العرب من العزة والأنفة وقوة العارضة وسداد الرأي ، والاعتداد بخصائصهم بين الأمم .

ومن أبرز النواحي التي يظهر فيها توسط الأمة العربية في تاريخها الاسلامي ، وعدم ميلها الى أطراف الأمور ، فلسفتها في الحياة ، وموقفها من العقائد ومن الأجناس الأخرى . وهذه نواح كان للتوجيه الديني فيها كبير الأثر : فقد اختار الله للرسالة التي اصطفاها بها هذه الأمة أن تقوم دعوتها على أساس الوحدة الشاملة ، والمساواة أمام الخالق في الكرامة الانسانية ، فلا يفضل عربي عجميا ولا أبيض أسود ، ولا غني فقيراً ، الا بقدر نصيب كل منهم من التقوى وحب الخير والعمل له . ومن هنا شهد العالم للمرة الأولى في تاريخه مجتمعا انسانياً راقيا تقوم حياته على التعايش السلمي ، بين جميع أفراده وجماعاته ، ويشترك مواطنوه في خدمته وترقيته والدفاع عنه ، والتمتع بخيراته والاعتزاز بأمجاده ، دون أن يحول بينهم وبين شيء من ذلك اختلاف نسب أودين ، أو لون بشرة ، أو انتماء الى عنصر من العناصر . وعرف ذلك المجتمع كيف يحل مشكلة الفقر والغنى ، والعمل ورأس المال ، على أساس من التعاون والتكافل ، والعناية بالأنظمة والمنشآت العامة ، التي تضمن قدراً من الحياة الكريمة للفقراء والمساكين والعجزة والمرضى ومن اليهم ، دون تقيد في هذا باعتبارات عنصرية أو طائفية أو غيرها . ثم عرف كيف يوفق في فلسفته في الحياة ، بين مطالب الروح ومقتضيات المادة ، وكلاهما عنصر في التكوين الانساني : فلم تنزع الأمة العربية يوماً مالى المادية الجافة الخالية من الروح . ولم تمل كل الميل الى الروحية المسرفة ، المؤدية الى الانعزال والفناء ، بل أخذت حظها من العمل وعمارة الكون . والتمتع بزينة الحياة وطيباتها التي أحلها الله ، وجاهدت في سبيل

التطور والسمو الروحي ، والتزود للحياة الآخرة ، جهاداً تفاوتت درجاته ومراتبه حسب استعدادات الناس وطبائعهم وظروف حياتهم ، فكان فيهم الصالحون والعباد والزهاد ، وكان فيهم المتصوفة الذين لم يمنعهم تصوفهم من أن يشاركوا في الحياة العامة ، وفي تطوير الحركة الفكرية . هذا التوسط في فلسفة الحياة الانسانية ، وعدم اهمال عناصر الفطرة أو احتقارها ، مزية لها شأنها في الشخصية العربية ، وفي الأنظمة الأخلاقية والاجتماعية ، التي سادت ولا تزال تسود حياة العرب في مختلف بيئاتهم . ومن الواضح أن ماتدعو اليه الآن الجمهورية العربية المتحدة ، من سياسة الحياد الايجابي والتعايش السلمي ، أثر من آثار تلك الخصائص الموروثة ، التي جعلت العرب أمة وسطاً في الناس ، وكرهت اليهم الانحياز والتبعية والغلو في النزعات والمذاهب وجعلتهم أميل الى السلام والاخاء والتسامح وتكران الذات ، والايثار ، وعدم المبادرة الى الاساءة ، الا حين يصرح الشر وتنتهك الحرمات ويعتدى على مقدسات الأوطان وكراماتها ، فهنالك ينتضي العربي سيفه وعزيمته ، ويقتحم الغمرات ، مستهيناً بالموت ، طالما النصر وامة الشهادة . وبرهن العرب في تاريخهم وفي حروبهم على أنهم أمة تعرف كيف تكبح جماح نشوتها في ساعة الظفر ، وكيف تعامل أعداءها المنهزمين معاملة تنطوي على مبادىء النبل والمروءة والعفو عند المقدرة .

٥ ـ هذا القوام وهذه العناصر والعوامل هي التي كونت شخصيتنا العربية الاسلامية . وبهذه الصفات والسمات استطاع العرب حين انتشروا وسادوا أن يجعلوا سيادتهم خيراً وبركة على الناس ، وعرفوا كيف يذودون عن أوطانهم ، ويسجلون لأنفسهم في العصور الذهبية من تاريخهم أعمالا وبطولات خالدة ، وكيف يحفظون شخصيتهم من أن تنحل أو تتفكك في مرحلة الضعف والجمود التي شملت الشرق فترة من الزمن ، ومن أن تضعف أو تفقد شعورها بذاتها في عصر الاستعمار الغربي الذي حاول بشتى وسائله أن يزعزع ثقة العرب بأنفسهم ، وأن يحاربهم باضعاف تراثهم وخصائصهم .

وهكذا سار تاريخ منطقة الشرق العربي سيره الذي وصفنا من مرحلة الحضارات القديمة التي دفعت بالانسانية دفعة قوية الى الأمام ، الى مرحلة الحضارة الاسلامية العربية الكبرى التي وصلت قديم الانسان بجديده ، ونفخت في تراثه الفكري والفلسفي روحا من العقيدة والايمان والتسامح واحترام كرامة الانسان ، وسارت بالبشرية خطوات كبيرة في سبيل التحرر العقلي ، ومهدت السبيل لنهضة العلم الحديث . ثم انتقل تاريخ الشرق العربي — بعد فترة ضعف وخمود — الى حركة قوية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين في سبيل ابراز الكيان العربي ، والى كفاح مجيد في النصف الأول من القرن الحاضر في سبيل تحرير الأوطان العربية من رق الاستعمار . ثم الى جهاد ايجابي مشترك [1] في سبيل تجديد الشخصية العربية وجلاء طابعها ، ودعم شعورها بقوميتها ، وتحقيق التكامل الشامل بين اعضائها ، وتهيئتها لأن تقوم بدورها من جديد في اسعاد الانسانية وأمنها ورخائها وتقدمها نحو الكمال المنشود .

---

[1] راجع . العالم العربي . نجلاء عز الدين . ترجمة محمد عوض ابراهيم وآخرين . [دار أحياء الكتب العربي – القاهرة ١٩٥٧] الفصل السادس عشر .